ان هذه الصورة قد خلعت بحذافيرها وبمزيد من التأكيد ـ بفعل عناصر اضافية كالدعاية الصهيونية ـ على الفلسطينيين. والشائع ان الحركة الصهيوينة قد روّجت هذه النعوت حول الفلسطينيين، وهذا صحيح؛ ولكن من الواضح ان ثمة ارضية، أو تربة، صالحة في الغرب لتقبّل ذلك، ليس عن الفلسطينيين فقط، ولكن عن كل من ينتمي الى العالم العربي.

ثانياً: الاستعمار والمفاهيم الغربية الاستعلائية

افتتحت هذه المرحلة الجديدة من اللقاء العربي والفلسطيني بالغرب في نهاية القرن الثامن عشر، حيث تراجع نابليون بونابرت عن ابواب عكا، واستمرت قواته لثلاث سنوات في مصر، وتقلص الوجود الغربي في المنطقة العربية عقب الحرب العالمية الثانية حتى انتهى في الوقت الراهن، باستثناء فلسطين. ان هذا السياق يجرّنا، تلقائياً، الى الربط بين الظاهرة الاستعمارية الغربية والوجود الصهيوني في فلسطين، غير انه، ولغرض الدراسة فقط، سوف نلتفت، في هذه النقطة، الى أثر الظاهرة الاستعمارية في تشكيل الصورة الفلسطينية، على أن نخص البعد الصهيوني بالنقطة اللاحقة.

يقع الموقف الغربي من العرب، في المرحلة الاستعمارية، ضمن النظرة العنصرية الاستعلائية التي اسقطها الغرب على كل ما هو خارج اوروبا ؛ وفي هذه المرحلة تبلورت الصورة العربية ضمن السياق ذاته، الامر الذي تصاعد حتى ساعد الغرب في احكام السيطرة الصهيونية على فلسطين.

لقد حكم الغرب على كل حضارات الشرق بالضعة، ووصلت عجرفة بعض المفكرين الانجليز الى الحد الذي ادعى فيه احدهم بأن «... رفاً واحداً من مكتبة اوروبية جيدة يعادل كل التراث الوطني للهند والجزيرة العربية»[١٢]. واتهم الغرب العقل العربي بالقصور وعدم القدرة على تركيب الاشياء. ويمكن تلخيص الصورة العربية في هذه المرحلة من واقع ما كتبه اللورد كرومر، الشخصية الاستعمارية المعروفة في مصر . ففي نظره يبدو العرب «... سذّجاً غافلين، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة، مجبولين على حب الاطراء الباذخ، والدسيسة، والدهاء، والقسوة على الحيوانات، وعقولهم فوضوية تعجز عن فهم ما يدركه الاوروبي البارع بصورة فردية، وهم عريقون في الكذب، وكسالى سيئو الظن، وهم، في كل شيء، على طرف نقيض من العرق الانجلو ـ سكسوني، في وضوحه، ومباشرته، ونبله...»[١٣].

لقد شهدت هذه المرحلة تداخل وتقاطع الاطماع الاقتصادية بالفكر العنصري والرغبة الاوروبية في الهيمنة على العالم العربي، واعاقة اي أمل للعرب في النهضة التي يمكن ان تعيق عمليات النهب الاستعماري. وهنا ولدت البذور الاولى للصهيونية الحديثة وضرورة تحويلها من مجرد «تهويمات اسطورية» الى حركة فعلية ذات كيان حي؛ وهنا، ايضاً، يبدو البعد الغربي في النظرة الصهيونية الى فلسطين، الارض والشعب.

تناول الكثيرون أثر الحركة الصهيونية في تشكيل الصورة الفلسطينية، في العالم الغربي، بمفهومها المعاصر، كما سنرى. وفي أثناء ذلك أُهمل، الى حد ما، البحث في اثر الغرب ذاته في تشكيل الفكر الصهيوني تجاه فلسطين والفلسطينيين. والواقع، ان الصهيونية واساليبها في تكييف العرب عموماً، والفلسطينيين خصوصاً، قد تأثرت بالنموذج الغربي للممارسة السياسية والفكرية. وهي، في واقع الامر، ايضاً، نتاج ظروف عامة، مادية وفكرية، تعود، في بعضها، الى المجتمع الغربي الاوروبي في القرن التاسع عشر، ويعود بعضها الآخر الى الوضع المادي، والفكري، للاقليات اليهودية في ذلك المجتمع (المشكلة اليهودية)[١٤]، بينما ينتمي بعضها الأخير الى التقاليد اليهودية الموهومة ذاتها.